المصدر: الاخبار
التاريخ : ٢٠٠١/٦/٢١

إلى الذين أسرفوا فى الهجوم عليه:

السادات.. ماله وما عليه

كنت قبل اكتوبر ١٩٧٣ أعمل مدرسا بمعهد المشاة بالقاهرة.. وتم رفع حالة الاستعداد للقوات المسلحة بحجة إجراء مناورات.. وكثيرا ما رفعت قبل ذلك بنفس الحجة.

وقبل الحرب ببضعة أيام زارنى أحد الضباط العاملين بالجبهة.. وصرح بشكوكه فى أن يكون الأمر هذه المرة حربا لامناورة.. وانزعجت بشدة فهل نحن قادرون علي خوض الحرب بعد؟

وهاجمتنى الذكريات: تذكرت دورة تدريبية حضرتها على أيدى الخبراء الروس عام ١٩٧٠.. والخبير يشرح لنا كيفية اقتحام قناة السويس.. وفتح الثغرات فى الساتر الترابى بواسطة المواد المتفجرة.. والرجل غير مقتنع بما يقول! فالساتر الترابى الرهيب يحتاج إلى ما يساوى قنبلة ذرية من المتفجرات لفتح الثغرات فيه!

وينظر الخبير إلينا - نحن الدارسين المصريين - بعينين ملؤهما الحيرة واليأس قائلا: انها مهمة صعبة للغاية بل يكاد ينطق: انها مستحيلة!! ويطفح وجهه بالاشفاق والرثاء ولسان حاله يقول: إنها مشكلتكم على أية حالة.

وتذكرت مقالات كاتب الأهرام الكبير الأستاذ «محمد حسنين هيكل» الذى صور العبور على انه سيكون الكارثة بعينها: فمياه القناة ستصير نارا سائلة.. والخسائر لن تعد ولن تحصى.. والذين سينجحون فى العبور ستصطادهم طائرات العدو فى الأرض العراء كما تصطاد النسور.

وتمضى أيام وتنشب الحرب.. ونعبر القناة.. ونبطل مفعول قاذفات اللهب ويظل ماء القناة ماء ولايتحول نارا سائلة!.. وفتحنا الثغرات فى الساتر الترابى بأسلوب «صنع فى مصر»..

بخراطيم المياه أو مدافع المياه.. وقام جنود المشاه بعد العبور بصد دبابات العدو بمدافعهم الخفيفة.. وكبدوها خسائر مذهلة وهى سابقة لم تحدث فى كل الحروب إذ المفروض أن تهزم الدبابة دبابة مثلها.. أما طائرات العدو فقد تكفل بشل فاعليتها حائط الصواريخ المضادة للطائرات.

واسأل اسيرا إسرائيليا ايامها.. هل كنتم تتوقعون هجومنا؟

ويجيب: كان احتمالا ضعيفا.. وكنا نتصور إذا قمتم بالهجوم أن تعبر قواتكم فى قطاع محدد المحور الشمالى أو الأوسط أو الجنوبى.. وكنا نعد للقضاء على القوة العابرة.. أما أن يعبر عشرات الألوف من الجنود فى وقت واحد وعلى طول مواجهة القناة من السويس إلى بورسعيد.. ثم يتقدمون - بعد العبور - كتفا بكتف - فهذا ما لم نكن نتوقعه وقد أربكنا وشتت جهودنا، وهو ما لم يخطر لنا على بال!

●●●

وكانت تلك هى النتائج الأولى لقرار «السادات».

السادات كان زعيما فذا ولاريب.. تاريخه ينبىء بذلك:

حياته الفقيرة فى القرية.. التحاقه بالجيش.. ثوريته التى جعلته ينضم للكفاح السرى ضد الإنجليز والحكومات العميلة والسراى.. وضابط فقير مثله كان أولى به أن يستكين مستريحا يتمتع بوظيفته المرموقة فى صفوف الجيش.. ولكنه ناضل.. وفصل من وظيفته.. وحكم عليه بالسجن وهرب.. وتنكر وعمل تباعا وسائقا ومقاولا.. ثم عاد للجيش واشترك فى ثورة يوليو عضوا بمجلس قيادتها.. وقرأ أول بيان فى الإذاعة بأعصاب من فولاذ والملك فاروق مايزال فى قصره!!

وبقى السادات بجوار عبدالناصر رغم تسريح جميع أعضاء مجلس الثورة تقريبا.. حتى عينه نائبا له..

ثم أصبح رئيسا للجمهورية بعد رحيل «عبدالناصر».. وبهذه المناسبة

أذكر حكاية معبرة حكاها لى استاذ فاضل من اساتذة اللغة العربية كان يحاضرنا فى معهد الدراسات الإسلامية عام ١٩٧٦.. اسمه «السيد أبوالمجد» رحمه الله.. وكان على اتصال بالسادات فى بداية الثورة.

الحكاية تقول: إن السادات وهو ضابط صغير كان سائرا ذات ليلة مع صديق له بجوار قصر عابدين.. وفجأة توقف ونظر إلي شرفة القصر وقال لصاحبه: يوما ما سأقف فى هذه الشرفة وسأحكم هذا الشعب!!

أصدر السادات وهو رئيس للجمهورية قرارات مهمة استوحاها من نبض الشعب وغير بها بعض الثوابت البغيضة للعهد الناصرى:

فشطب «الجمهورية العربية المتحدة» وأعاد اسم «مصر» ثانية..

وأبعد الخبراء الروس لما أحس بأن الشعب والجيش يضيق بهم.

وخفف القبضة الاشتراكية للدولة..

وأبعد عن منصب نائب الرئيس ضباط الثورة وعنجهية الثوار، وعين «حسنى مبارك» ببساطته وهدوئه وصبره والتزامه.

وأنشأ المنابر، ثم الأحزاب..

وفتح الباب لحرية التعبير عن الرأى..

●●●

لكنى رغم كل هذا أسأل نفسى: الم يكن السادات ديكتاتورا؟

وتأتينى الإجابة علي الفور: إنه كان يحب أن يمضى قراراته المنفردة، ولكن بالقانون!! ولذلك صنع «دستورا» رديئا.. وقوانين سيئة السمعة.. وتصرف فى كثير من الأمور ككبير العائلة الذى له حق الطاعة، وليس كالرئيس الذى عليه واجب الشورى!!

إلا أنه من الجلى أن «السادات» منذ تولى السلطة استولت على كيانه «مهمة» نذر نفسه لإنجازها وهى تحرير سيناء.. بأية طريقة.. وبأى ثمن.. وبأقصى ما يستطيع من سرعة.. لأن مرور الوقت كان يكرس الاحتلال..

وربما كان ذلك لإحساسه بأن الثورة هى التى اضاعت سيناء فراى لزاما عليه - كأحد قادة الثورة - أن يعيدها.

أو ربما أراد أن يثبت - بإعادته سيناء - انه اكثر زعامة ومهارة وحنكة وخلودا من «عبدالناصر» الذى سارت بذكره الركبان! وهدف تحرير سيناء - وهو مطلب وعر - هو الذى جعل السادات يرغب فى أن يقود سفينة الوطن وسط الجنادل بدون إزعاج!! وكان يثق بفكره الخلاق ويتفوقه على الجميع.. ومن هنا اتخذ كل القرارات والإجراءات غير الديمقراطية، التى كان أخرها اعتقالات «سبتمبر» الشهيرة.. والتى لقى مصرعه بعدها بشهر واحد على يد الذين اهاجهم إعلانه أن ما لقيصر لقيصر ومالله لله!!

لكنى اكاد أجزم بأن العمر لو امتد بالسادات وشهد الجلاء عن سيناء.. لكان بعدها فاجأنا بقرارات كالصواريخ دويا وتأثيرا، فى شئون السياسة والاقتصاد وغيرهما.. فالسادات كان ذكيا وجريئا وقارئا ومستودع خبرات ومثقفا.. وأكاد أقول: كان متصوفا وفيلسوفا. ثم إن الأمر المؤكد - أيضا - أنه كان عاشقا لمصر.

محمد شبل